اكرم عبد الحفيظ السوادي

كشكول الذكريات

قصص لم تقلها امرأة... بل روحها

كشكول الذكريات

اكرم عبد الحفيظ السوادي

شكر

ماهر أسعد بكر،

كنتَ الصوت الأول في صمت البدايات، واليد التي دفعتني نحو الطريق حين ترددت.

شكراً لإيمانك الذي سبق النص، ولرفقتك التي من دونها، ما كانت هذه لرواية لتولد.

— بشرف الامتنان،

شريكك في الحلم والحرف.

إهداء

إلى أبي، ذلك الجبل الصامت الذي علّمني أن الثبات لا يُقال... بل يُعاش.
وأن المثابرة نبراس حياة.

وإلى أمي، التي سكبت الحنان في قلبي قطرةً قطرة... وكان صبرها ممزوجا بدعائها مصباحاً ينير قلبي قبل الطريق.

وإلى أختي الكبرى، رفيقتي الأولى في الفرح والخوف، وسندي الصامد حين كنت أتعثر بين الحروف.

وإلى ملهمتي، تلك التي لولا مرورها، ما فهمت يومًا كيف يشتعل الحرف حين يُلامس القلب.

وإلى بناتي، زهور قلبي، ومراياي الصغيرة، أنتم المستقبل الذي أكتب لأجله، والحبّ الذي لا ينطفئ حتى حين يسكت العالم.

وإلى كل من آمن بي حين كنت مجرّد فكرة، أو ظلًّا على هامش الورق، ثم قالوا لي: "اكتب... فصوتك يستحق أن يُسمع."

الفهرس

ليلة شتوية	1
حين مرض الصمت	30
حبّ امرأة غير موجودة	109
رائحة الشك	169
الانضباط القاتل	210
المحطة الأخيرة	251
جلسة على حافة العتمة	297

ليلة شتوية

ليلة شتوية موشّحة بالكآبة، حيث لا يطرق المطر النوافذ فحسب، بل يقرع قلوب الناس أيضًا.

كأنما قررت السماء أن تتخلى عن كبريائها وتنحني فوق القاهرة، لا لترحمها، بل لتغسل منها ما تراكم من غبار الزمن، وما تكدّس في الأرواح من خيبات.

في أحد الشوارع الضيقة المتفرعة من حارات شبرا العتيقة، كانت الأرصفة تلمع ببريقٍ حزين، تغمرها الأمطار التي لم تتوقف منذ العصر.

تغوص الأحذية في الوحل الخفيف، وتهرب المظلات من أيدي أصحابها كأنها ترفض مواصلة الرحلة.

كل شيء هنا يُقاوم:

أعمدة الإنارة القديمة تقف متأرجحة، تصدر ضوءًا باهتًا كأنه يحتضر، أبواب البيوت متراصة كجنود من الخشب تعلّمت الصمت منذ زمن.

صوت المطر يغلب حتى هدير السيارات، ويغني وحده سمفونيةً حزينة.

وفي زاوية ذلك الشارع الضيق، الملتفّ كأفعى بردانة، ظهرت واجهة زجاجية باهتة، وقد نُقش عليها بحروف بيضاء شبه ممحية:

"كشكول الذكريات"

وتحت الاسم، بخطٍ أدقّ وأبهى، وُضع شعار:

"هنا تُشرب القهوة مرتين: مرة باللسان، ومرة بالروح".

واجهة المقهى لم تكن تدعو الداخلين، بل كانت تختبرهم.

ضباب البخار المتكاثف على الزجاج يجعل المقهى يبدو كحلمٍ معزولٍ عن العالم، لا يُدخل الغرباء ولا يرحّب بالمارة.

كان المطر ينزلق فوق الزجاج في خطوط طويلة، كدموع سالت من عينٍ قديمة، نسيت منذ متى بدأت البكاء.

في الداخل، هناك أضواء... أضواء صفراء خافتة، تخترق النوافذ، وتدعو من يراها للتفكير مرتين:

هل يدخل؟ أم يعود أدراجه ويترك الأسرار للنسيان؟

وفي الخارج، وقفت امرأة تحت المطر.

بملامح صلبة، وكتفين منكمشين تحت معطف ثقيل، كانت أمينة تقف أمام المقهى، لا تعرف إن كانت تنتظر شيئًا... أو تهرب من شيء.

عينها تنظر إلى اللافتة، تقرأها للمرة الثالثة ربما، لكنها لا تبتسم، ولا تبكي، فقط تنفُذ إلى العمق.

أخرجت من جيبها الداخلي ورقة مطوية، نظرت إليها لحظة، ثم أعادتها إلى مكانها، كما تُعيد الأرملة خاتم الزواج إلى الدرج دون أن ترتديه.

فتحت الباب ببطء.

أصدر الباب صريرًا خافتًا، كأنه يأنّ لاستيقاظ ذكرى قديمة.

دلفت أمينة إلى الداخل، فاجتاحها دفء خافت... لا دفء النار، بل دفء الذكرى.

كانت أرضية المقهى خشبيةً داكنة، تمتصّ وقع الأقدام ولا تصدر صوتًا، كأنها تدعو الداخلين للسير بحذر، وللحديث بصوت منخفض.

الضوء القادم من اللمبات المتدلية لا يضيء بقدر ما يكشف... يكشف الغبار في الزوايا، الشقوق في الجدران، ووجوه الجالسين كما لو أنهم نُحتوا من ماضٍ منسي.

الجدران مغطاة برفوف خشبية تحوي دفاتر قديمة، وأقلامًا لا تكتب، وأواني فخار صغيرة، وكأنك داخل متحف للذاكرة لا للضيافة.

الطاولات من الرخام الأبيض، لكنها مخدوشة، محفور على سطحها ما يشبه خريطة، أو ربما... نسيج حكاية لم تُكتب بعد.

في أقصى المقهى، وتحديدًا تحت ساعة حائطية قديمة توقفت عقاربها عند الساعة ١١:٠٧، وقفت امرأة أمام البار.

كانت فاتنة.

امرأة في أول عقدها الخامس، وجهها لا يحمل ملامح الجمال التقليدي، لكنّ فيه شيئًا من الجاذبية الصامتة التي لا تفهمها، إنما تخشاها.

كانت ترتدي سترة سوداء أنيقة، لا تعكس شخصيتها بقدر ما تُخفيها.

تتدلى من عنقها قلادة ذهبية بنقشٍ غريب، تظهر عليه كلمات لا تُقرأ من الوهلة الأولى، لكنك لو اقتربت ستقرأ:

"المعادلة الأخيرة"

كانت تنظر إلى أمينة دون أن تنظر فعليًا.

عينان صافيتان كمرآتين مشقوقتين، ترى فيهما نفسك ولكن كما لا تودّ أن تراها.

أمينة تقدّمت بخطى مترددة، اختارت طاولة في الزاوية القريبة من الموقد الصغير، خلعت معطفها بصمت، ثم جلست كما تجلس من يستعد للمحاكمة.

وضعت حقيبتها على الطاولة، ثم أخرجت ورقة صغيرة، نظرت إليها، أعادتها إلى مكانها، ووضعت كفها فوق حقيبتها كأنها تحميها من تسلل الزمن.

في هذه اللحظة، لم يكن في المقهى أحد غيرها وفاتنة.

لكنّ الشعور لم يكن شعور الانفراد... بل شعور بالمراقبة، كأن الجدران نفسها تنصت، وكأن الضوء الأصفر يملك أذنين.

ثم... انفتح الباب مجددًا.

دخلت ليلى.

كان المطر قد أغرق كتفيها، والشعر المتدلّي على جبينها كان مبتلًا مثل صفحة نُسيت في كتاب مفتوح.

في يدها اليمنى، سيجارة مشتعلة.

وفي يدها اليسرى، كتاب صغير... عنوانه محفور بخطٍ غليظ:

"كيف تنسى؟"

كانت ترفعه كمن يتحدّى به العالم، لكن ما إن جلست حتى فتحته... فبانت صفحاته بيضاء تمامًا.

كتاب لا يحتوي شيئًا، كذاكرتها ربما.

ليلى لم تلقِ السلام.

جلست دون أن تنظر إلى أحد، سحبت مقعدًا، وضعت الكتاب على الطاولة، نفثت دخانها إلى الأعلى وقالت بصوت خفيض، باللغة التي لا تعرف المواربة:

"كم هو ثقيل هذا المطر... كأنه يريد أن يغسلنا من أنفسنا... لكنه يتأخر كثيرًا".

رفعت أمينة عينيها نحوها، نظرت للحظة، ثم أعادت عينيها إلى الورقة التي تخبّئها.

لم تمر لحظات، حتى دلفت منى.

كانت تتحدث عبر الهاتف، بصوت منخفض لكنه حازم:

"لا، لا تخافي يا أمّي... لن أتأخر، سأعود قبل منتصف الليل، فقط أردت أن أطمئنك... نعم، نعم... إلى اللقاء".

أغلقت الهاتف، نظرت في أرجاء المقهى، ثم تنفست بعمق كمن يدخل امتحانًا حاسمًا.

وجهها لا يحمل مشاعر.

كأن الحياة علمتها كيف تُطفئ إشارات القلب، أو كأنها قررت أن تتوقف عن التفاعل كي لا تُصاب بالأذى.

في يدها، خاتم زواج باهت.

وفي عينيها، قلق من نوعٍ لا يُعرف سببه.

جلست على الطاولة التي تجلس عليها ليلى، دون أن تطلب إذنًا، ودون أن تبرر.

ولم يكن هناك من حاجة للتبرير.

الليل كان يكفي ذريعة.

لم يكن المقهى يعج بالضجيج، ولا بأصوات الموسيقى، بل بشيء آخر، شيء لا يُسمع بل يُحسّ...

الصمت المشوب بالترقّب.

صمت يشبه اللحظة التي تسبق العاصفة، أو ما قبل لحظة البكاء حين تمتلئ العين بالدموع لكنها لا تذرفها بعد.

كان الدفء الذي ينبعث من الموقد في الزاوية لا يكفي، لا لبعث الطمأنينة، ولا لبعث الحنين.

كأن المكان كله أقيم لا للراحة، بل لشيءٍ آخر... للمواجهة ربما.

جلست أمينة في زاويتها تتأمل اللاشيء، وفي كفها الرسالة القديمة تئن تحت أصابعها.

إلى جوارها، في الطاولة الآخرى، جلست ليلى، تنفث دخانها ببطء، كمن يتعمّد تلويث الهواء بما في داخله من اختناق.

أما منى فكانت تتنفس كما تتنفس الآلات: بانتظام، دون عاطفة.

ومع كل هذا الهدوء، ومع كل هذه الكآبة المتناثرة فوق الطاولات، كان هناك ما زال مقعدٌ فارغ، ينتظر...

وها هي هند تدخل.

دفعت باب المقهى بحذر، كأنها تتوقع أن ينفتح على فخ لا مخرج منه.

وجهها نحيل، مشدود، وشفاهها لا تتحرك إلا عندما تضطر للكلام.

عينان واسعتان، زائغتان، تطاردان الأشياء قبل أن تستقرّ، كأنها تبحث عن ظلٍّ يتربص بها، أو تتأكد أن لا أحد يلاحقها.

دخلت والبرد يلفّ جسدها، لكن ليس وحده، بل الخوف أيضًا.

خوفٌ غير مبرر، لا يُقال، ولا يُفهم.

كأنما أحضرت معها طيفًا لم يمت بعد.

سارت بخطى مترددة، وقفت عند كل طاولة لثوانٍ كمن يتأكد من خلوّها من الأشباح، ثم اختارت أخيرًا مقعدًا بعيدًا عن الجميع...

زاوية خلفية، تطل على الجميع دون أن يراها أحد جيدًا.

جلست، وضعت حقيبتها أمامها فوق الطاولة، ثم لفّت ذراعيها حولها كمن يحتضن درعًا، لا مجرد حقيبة.

سعلت سعلةً خفيفةً، ونظرت بعينين لامعتين نحو ليلى، ثم منى، ثم أمينة...

وكأنها تنتظر منهم تفسيرًا، تبريرًا، سببًا لهذا الجمع.

لكن لا أحد تحدث.

ولا أحد سأل.

ولا أحد شرح.

لأن ما جرى لم يكن ترتيبًا... بل قدَرًا.

وفاتنة؟

كانت تقف كما هي، كتمثال من زمنٍ مهيب، لا تبتسم، ولا تعلّق، فقط تُراقب.

كانت يداها تمسحان سطح طاولة البار بمنديل مطرز الأطراف, ليس مخصصًا لمسح الطاولات، ببطءٍ شديد، كمن يُنظف أثر جريمة.

الساعة على الحائط، تلك التي توقفت منذ زمن عند الحادية عشرة وسبع دقائق، بدت في هذه اللحظة كأنها تتحرك بلا حركة...

توحي بأن شيئًا سيحدث، أو قد حدث بالفعل، لكن لا أحد يعرف متى.

ثم فجأة...

انطفأت الأنوار.

صوت انقطاع الكهرباء كان حادًا، مفاجئًا، كأن أحدهم ألقى بستارة سوداء فوق العالم.

في لحظة، غرق المكان في ظلام كثيف، لا يرى فيه أحدٌ شيئًا، لا ملامح، ولا حدود، فقط المطر في الخارج يواصل هطوله، أشدّ، وأغزر.

وفي الظلمة، سُمِع صوت فنجان يرتطم بالأرض.

تكسّر الكوب، وانقسم الصمت.

تأوهت منى بخوف خفيف، وضغطت يدها على صدرها.

أما ليلى، فقد أطلقت ضحكة خافتة، لكنها لم تكن ضحكة حقيقية، بل ضحكة امرأة تعرف أن ما يحدث خارجها لا يقارن بما يعصف بها من الداخل.

وقالت بصوتٍ فيه رعشةٌ ساخرة:

"حتى الكهرباء... لم تَطِق وجوهنا، فأغمضت عينيها."

ردّت أمينة، بصوت مرتجف، تكلّفه الصلابة:

"في الظلام، أحيانًا أسمع صوته... صوته قبل أن يصمت... قبل الجلطة."

ثم جاء صوت هند، متوترًا، كأنها تتحدث إلى أشباح لا إلى نساء:

"لماذا نحن هنا؟! من قال إننا اجتمعنا؟ هل بيننا موعد؟ لا أذكر! لا... لا أذكر!"

في تلك اللحظة، لم تُجب إحداهن، بل كانت الإجابة من جهة أخرى...

من عند البار، تقدم صوت هادئ، بارد، لكنه ثابت، كأنه صادر عن عقل لا قلب:

"المولد الكهربائي معطّل منذ ..."

ثم صمت لثوانٍ، وأكمل:

"لدينا شموع، لا تقلقن."

وهنا، تحركت فاتنة للمرة الأولى منذ دخول الجميع.

أخذت شمعة طويلة من الرف، أشعلتها، ثم وضعتها في منتصف الطاولة الكبيرة.

كان اللهب صغيرًا، لكن ظلاله تمددت على الجدران، وعلى الوجوه، وعلى الأكواب، وكأن الضوء يصرخ بما لم يُقل بعد.

قالت منى، بصوت خافت:

"ربما... ربما يجب أن نتكلم، حتى نكسر صمت هذه الظلمة."

نظرت إليها ليلى، ثم تمتمت:

"عن ماذا؟ عن المطر؟ عن الظلمة؟ عن الذكريات التي تنتظر لتتحدث؟"

هنا، تراجعت أمينة في مقعدها، أخرجت الورقة من حقيبتها، نظرت فيها للحظة، ثم رفعتها إلى صدرها، كمن يحتضن ابنًا غائبًا.

أما هند، فقد انكمشت أكثر، لكنها لم تعترض.

وكأنها تشعر أن ما سيقال، ربما يحتوي جوابًا لما تعانيه.

قالت فاتنة:

"لنجلس جميعًا على الطاولة الكبيرة."

وهذا ما فعلن، تقدّمت فاتنة، وضعت فنجانًا من القهوة أمام كل واحدة منهن، بهدوء بالغ، ثم قالت وهي تمسح بيدها الطاولة:

"اجتمعتن لأن الذاكرة لا تُدفن إلا حين تُروى. وكل منكن تحمل قبرًا بداخلها."

كانت الجملة الأخيرة مثل صفعة ناعمة.

صمت.

ثم صوت منى، وهي تهمس:

"لِمَ لا نبدأ؟ ربما نجد من يفهم. ولو مرة... واحدة فقط."

نظرت فاتنة إليهن، ثم قالت، بصوتٍ أشبه بمطرقة قاضٍ:

"ابدأن. أنا هنا... لأسمع فقط."

لم تكن الشمعة كافية لإزاحة الظلام، بل بدت وكأنها تُضيء أكثر ما لا يجب أن يُرى.

كانت نارها الصغيرة ترتجف من برد المكان، وتلقي بظلالٍ متراقصة فوق الوجوه، حتى بدت ملامح النسوة الأربعة متغيرةً كل لحظة، كأن لكل واحدةٍ منهن أكثر من وجه، ولكل وجهٍ أكثر من جرح.

أمينة ظلت قابضةً على حقيبتها التي تحتوي ورقتها كأنها تمسك قلبها ذاته،

ليلى تراقب وهج الشمعة كما لو كانت تنتظر منها أن تنطفئ كي تختفي،

منى ظلت صامتة، عيناها لا تتحركان إلا نادرًا،

أما هند، فجلست في أقصى الزاوية، يداها تحيطان بحقيبتها كأنها درعٌ ضد العالم.

وكانت فاتنة... تقف في الخلف، لا تتكلم، لا تتحرك، فقط تمسح بلطف سطح البار الخشبي كما لو أنها تُنظّف رُكام الأرواح التي تجلس في مقهاها.

سادت لحظة صمت كثيفة، حتى بدا أن المطر في الخارج قد هدأ احترامًا لها.

لكن الواقع كان أعمق من ذلك...

إنه السكون الذي يسبق الانفجار.

ثم...

صرير الباب.

صوتُ الباب وهو يُفتح وسط ذلك السكون بدا كأن الزمان نفسه قد أُجبر على الالتفات.

استدارت النسوة الأربع نحو الصوت، ولم ينبس أحدٌ منهنّ بكلمة.

حتى هند، التي كانت دائمًا سريعة الريبة، لم تتفوّه بشيء، بل حدقت بعينيها المتسعتين نحو الباب كأنها ترى شبحًا خرج من أعماقها.

دخلت سمر.

امرأة لا تحتاج إلى تقديم.

يكفي أن تراها، فتشعر بأنها ليست من هذا المكان... ولا من هذا الليل.

كانت في أواخر الأربعينات، طويلة القامة، مرفوعة الرأس كأنها اعتادت أن تُعطي الأوامر لا أن تتلقّاها.

ترتدي بدلة سوداء قاتمة، مقطّعة الزوايا بخيوط فضية لامعة، ويظهر تحتها قميص أبيض مشدود لا يسمح حتى للهواء بالمرور.

في يدها اليمنى مظلّة منهارة الأطراف، كأنها فقدت معركتها مع الريح لكنها لم تسقط رايتها.

لم تنظر إلى النساء مباشرة، بل أخذت نظرةً سريعة للمكان.

عينان سوداوان لامعتان، فيهما ذكاء بارد، ونفور خفي، كأنها لا تنظر إلى المكان لتفهمه، بل لتُعيد ترتيبه.

سارت خطوة... ثم وقفت.

نفضت المطر عن معطفها، ثم نزعت القفازات من يديها واحدةً تلو الأخرى، ببطء محسوب.

لم تقل شيئًا.

لكن حضورها كان أكثر من كافٍ ليفرض السؤال:

من هذه؟

ولماذا جاءت الآن؟

لم تكن فاتنة قد اقتربت بعد،

لكن ليلى هي من قطعت الصمت، كعادتها، بسخرية تخفي بها ارتجاف قلبها:

"ما شاء الله... حتى المطر يُحسن اختيار من يُغرقه الليلة. هل أنتِ زائرةٌ للذكريات... أم قاضية؟"

رفعت سمر حاجبها، ونظرت إليها نظرة قصيرة، ثم قالت بهدوء، لكن بنبرة واضحة:

"حضرتُ لأنني كنت مارّة... ثم وجدتُ المكان مفتوحًا. والمطر لا يسمح بالتردد. هل هذا مكان للجلوس؟ أم مجلس تحقيق؟"

ردّت منى، بهدوء حذر، كأنها تُحاول تهدئة صوت القلق في صدرها:

"مجرد... مقهى. لا شيء رسمي، فقط نحن نحكي. لا شروط. ولا قوانين."

قالت سمر:

"أحبّ الحكايات... بشرط أن تكون دقيقة."

هنا، تقدّمت فاتنة بهدوئها المألوف، دون أن تُظهر دهشةً من دخول الضيفة، ودون أن تسأل عن السبب أو تُرحّب بها،

بل أشارت إلى مقعدٍ خلفي بجوار الجدار، وقالت بنفس النبرة الصامتة الحازمة:

"المقعد الأخير لكِ. وصلنَ قبلك. لكن... لم يتأخر أحد. الحكايات تبدأ حين تصل نفوسها."

جلست سمر إلى الطاولة الكبيرة دون اعتراض.

وضعت المظلة بجانبها، وراحت تعدّل من وضع ساعتها، ثم أخرجت من حقيبتها مفكرة صغيرة وقلمًا، وفتحتهما فوق الطاولة أمامها،

كأنها لا تنوي الإصغاء فحسب، بل تسجيل ما يجب أن يُقال لاحقًا... أو يُحاسب عليه.

قالت هند، وهي تُحدّق في المفكرة المفتوحة أمام سمر:

"هل ستدونين ما نقوله؟ أهذا اختبار؟"

أجابت سمر، دون أن تنظر إليها:

"أكتب أحيانًا... كي لا أنسى."

تسللت ضحكة خافتة من ليلى:

"وهل النسيان خطيئة أيضًا في جدولك؟"

قالت سمر، وهي ترفع عينيها إلى الشمعة:

"النسيان ليس خطيئة. لكنه دليل ضعف. وأنا... لا أحب أن أكون ضعيفة."

هنا فقط، تنفّست أمينة بعمق،

ثم أخرجت من حقيبتها الورقة التي كانت تخبئها منذ البداية، وتتفقدها كل خمس دقائق، ثم تعيدها إلى الحقيبة.

فتحتها ببطء، كأنها تفتح جرحًا،

ثم نظرت إلى اللهب، وقالت بصوتٍ مبحوح، متماسك ظاهريًا:

"كل شيء بدأ... يوم أحببته أكثر من نفسي.

ولهذا... قررت أن أتركه."

في اللحظة نفسها، توقفت الشمعة عن الاهتزاز.

وساد الصمت.

حتى سمر، التي لم يكن شيء يُفاجئها، رفعت نظرها من المفكرة، وحدّقت في وجه أمينة كما لو أنها تبحث عن المعادلة المجهولة في جملةٍ واحدة.

تقدّمت فاتنة من جديد، ونظرت إلى أمينة بصمت لا يكسره سوى البخار المتصاعد من فنجان قهوة أمينة، كأنما تخرج منه ذكرى.

وقالت، بصوتٍ هادئٍ كالموت:

"ابدئي."

حين قالت أمينة جملتها، تلك الجملة التي خرجت من فمها كاعترافٍ جافٍ لا دموع فيه،

ارتجف اللهب فوق الشمعة قليلًا، كما لو أنه فهم ما سمع... أو خاف.

"كل شيء بدأ حين أحببته أكثر من نفسي... ولهذا تركته."

كانت الجملة قصيرة...

لكنّها لم تكن بحاجة للمزيد.

النسوة الأربعة الأخريات لم يحرّكن ساكنًا، لكن وجوههنّ تغيرت، وتبدّلت كأن كل واحدة منهنّ تلقت طعنة في موضعٍ تعرفه جيدًا.

حتى سمر... تلك التي اعتادت أن تُدوّن ببرود، رفعت عينيها ببطء، ثم أغلقت مفكرتها دون صوت.

للمرة الأولى، بدت كأنها تسمع لا تُحلّل.

ليلى أمالت رأسها إلى الخلف، وأغمضت عينيها، كأنها تخشى أن تنظر إلى امرأة تذكّرها بما فعلت.

منى عضّت على شفتها السفلى، ووضعت يدها على بطنها، كما لو أن هناك ألمًا لا يُفسَّر.

هند تراجع جسدها قليلًا، وأطبقت يديها فوق حقيبتها بإحكام أكثر... أما عيناها، فقد علقتا على أمينة وكأنها ترى فيها نبوءة لما يمكن أن تصبح عليه.

وفوق الجميع، وقفت فاتنة... متسمّرة كأنها تمثال نُحت من الصمت، لكنّ عينيها كانتا تتحركان بسرعة، ترصد كل اهتزاز في الحناجر، كل ومضة في الأعين، كل نفسٍ دخل وخرج محمّلًا بالخوف أو الاعتراف.

الشمعة ذابت أكثر... قطرة شمع انزلقت على جسدها النحيل وسقطت على الطاولة بصوت خافت، لكنه بدا في تلك اللحظة كأنه صافرة انطلاق.

كانت لحظة غريبة...

الزمان بدا معلّقًا بين الثانية والثانية.

المكان، رغم صغره، صار ضيقًا كأنه يختنق من الأسرار.

وحتى الجدران، تلك التي تحمل دفاتر الذكريات والأقلام الجافة... بدت كأنها تنتظر أن تكتب أخيرًا.

وفجأة، دون سابق إنذار، أصدرت الساعة الميتة فوق الحائط صوتًا ضعيفًا.

"تك."

الجميع انتبه.

كانت لا تعمل... توقفت منذ سنوات على الساعة ١١:٠٧.

ومع ذلك، أصدرت صوتًا، واحدًا فقط.

لا ثانية تالية، لا حركة عقرب، فقط... "تك."

هند انتفضت في مكانها:

"هل... هل سمعتم؟!"

لم يجب أحد.

منى حدّقت في الساعة، ثم قالت:

"ربما كانت الريح..."

لكنّ ليلى ابتسمت بمرارة، ونفثت دخان سيجارتها، وقالت:

"أو... ربما صوت القلب الأول وهو يستيقظ."

أما أمينة، فلم تقل شيئًا.

لكنها، بهدوء شديد، فتحت الورقة المطوية أمامها ووضعتها على الطاولة، بحيث تراها الشمعة، لا أحد غيرها.

كانت بيضاء.

لا كتابة.

لا سطور.

فقط ورقة... بيضاء.

سألتها سمر، بصوت منخفض:

"أتكتبين فوقها الآن؟"

أجابت أمينة، دون أن ترفع عينيها:

"لا... لكنني أقرأ ما لم يُكتب بعد."

كانت الشمعة تذوب أكثر... والمطر في الخارج اشتد، كأن المدينة كلها تحبس أنفاسها انتظارًا لبداية شيءٍ لا رجعة فيه.

تنهدت أمينة.

صوت تنهدها بدا كأنه أول صفحة تُقلب من كتاب الحياة الذي تكدّس لسنين ولم يجرؤ أحد على فتحه.

قالت بصوت خفيض... لكنه واضح:

"كنتُ فتاة من حيّ بسيط... وهو كان ابن العائلة الراقية.

جمعتنا الجامعة، وفرّقتنا الحماقة...

وزرعتنا الحياة في قلب مأساة... كنت أنا من رواها."

رفعت عينيها، ونظرت إلى سمر، إلى ليلى، إلى منى، إلى هند... ثم إلى فاتنة.

وفي لحظة لم ينطق فيها أحد، قالت فاتنة بهدوء لا يخلو من رهبة:

"ابدئي."

وأُسدل الستار على صمت المقهى...

وارتفع الستار عن أول جثة منسية في ذاكرة امرأة.

في مساءٍ مطريّ، على طاولاتٍ منفصلة، تجلس خمس نساء، أمام كل واحدةٍ منهن فنجان قهوة، شمعة، وقلبًا لم يعد صالحًا للمراوغة.
جئن هربًا، من رجل، من ماض، من ذنب، أو من أنفسهن.
لكن شيئًا ما في ذلك المكان، يجعلُ الكلام ينزلق من بين الشفاه كدم لا تراه العين، ويحوّل المقهى إلى ما يشبه قاعة محكمة مظلّلة بالأسرار.
كل امرأة تتكلم، لكنها لا تنتظر ردًا، وكل قصة تتكشف، لكنها لا تغفر، فالخطيئة هنا ليست حدثًا، بل أسلوب حياة.
وفي الزاوية، امرأة تبتسم ابتسامةً خافتة، تستمع، ولا تتكلم، تدخّن، ولا تسأل، تضيء الشموع وتطفئ شيئًا آخر في صدور الجميع.
كشكول الذكريات، ليست مجرد رواية عن الألم، بل سجلّ صامت لكل ما لم يُقال حين كان يجب أن يُقال.
رواية عن النساء حين يُصغين لوجع لم يكن يخصّهن فقط، وحين يصبح الحب، حفرة تتسلّل منها نسخهن الأخرى.
اقرأها إن جرؤت، لكن لا تبحث عن النهايات، فبعض الحكايات تُكتب لتبقى مفتوحة، كجرح قديم.
كتبت هذه الرواية، كعقوبة مؤجلة...

